رابطة العالم الإسلامي
الأمانة العامة
الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

الثقافة الإسلامية المعاصرة
مفهومها وخصائصها

إعـداد

الدكتور بسيوني نحيلة

الأستاذ في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة قطر

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر

الثقافة الإسلامية.. الأصالة والمعاصرة

الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤ - ٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ
٢٨ - ٣٠ / سـبتمبر / ٢٠١٤ م

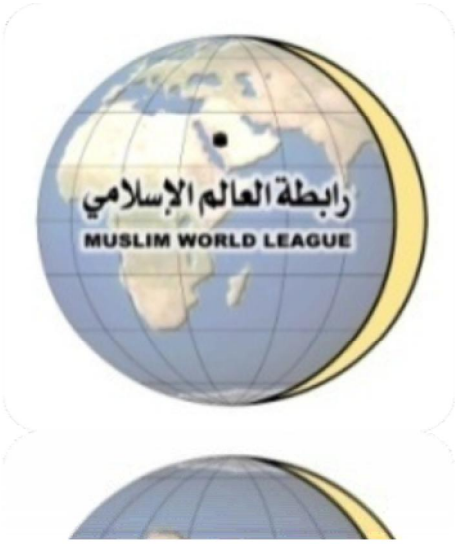

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩- الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة - مكة، تلكس: ٥٤٠٠٠٩ و٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

رغم أن الثقافة الإسلامية من أقدم الثقافات العالمية من حيث التجربة والتاريخ وأوسعها انتشاراً من حيث التأثير والأتباع، إلا أن موضوعها لازال - من الناحية الأكاديمية - وليداً في ساحة الباحثين والدارسين المسلمين، فأحياناً تُتناول على أنها جزء من العلوم الشرعية، وأحيانا أخرى على أنها جزء من التاريخ أو الحضارة الإسلامية.

ولربما كان السبب في ذلك هو أن مصطلح الثقافة لم يُعرف في كتابات العرب والمسلمين إلا من خلال المعاجم اللغوية والاستخدامات الضيقة للمصطلح، ولكن مع انتشار موضوع الثقافة بين المتخصصين في علم الأجناس وعلم الاجتماع، كان لزاماً أن يقوم الباحثون المسلمون بإعادة النظر إلى مفهوم الثقافة الإسلامية، وتحديد المقصود بها، خاصة في العصر الحاضر؛ وذلك من أجل تحريرها من التداخل مع فروع العلوم الأخرى، بما يساعد على إيجاد بنية أكاديمية تسمح لتأسيس هذا العلم بين التخصصات المختلفة، ومما يعين على فتح مجالات أوسع للدراسة والبحث العلمي المتجدد وغير التقليدي.

وهذا ما تحاول الدراسة التي بين أيدينا الوصول إليه من خلال بيان المقصود من مصطلح الثقافة الإسلامية، كعلم معاصر يجمع بين الطبيعة الإسلامية والتخصص الأكاديمي، وأيضاً من خلال بيان بعض الخصائص الأساسية للثقافة الإسلامية المعاصرة.

والهدف الأساسي لهذه الدراسة هو لفْت انتباه الباحثين إلى إمكانية تناول موضوع الثقافة الإسلامية بنظرة تراعي الزمان وهو المعاصرة، في ظل الحفاظ على الثوابت والأصول التي تعتمد عليها الثقافة الإسلامية، ويتفاعل الأفراد من خلالها لإنتاج ثقافة توصَف بوصفين: الإسلامية، والمعاصرة.

ويعتقد الباحث أن أهم ما يُعين على الوصول إلى هذا الهدف هو توضيح المفهوم وتحديده من خلال الاتفاق على معنى اصطلاحي، وأيضاً بإبراز أهم الخصائص المميزة لموضوع الثقافة الإسلامية المعاصرة.

هذا، ويأمل الباحث أن تأتي الخطة، بعد هذه المقدمة في مبحثين وخاتمة، كالآتي:

- المبحث الأول: مفهوم الثقافة الإسلامية المعاصرة
- المبحث الثاني: خصائص الثقافة الإسلامية المعاصرة
- الخاتمة: في أهم النتائج والتوصيات

أسأل الله تعالى التيسير والتوفيق والسداد.

المبحث الأول

مفهوم الثقافة الإسلامية المعاصرة

يتناول هذا المبحث بيان مفهوم الثقافة في اللغة والاصطلاح، مراعيا أمرين: خصوصية صفة (الإسلامية) المضافة إلى الثقافة في دراستنا، والتي تحمل من المبادئ والقيم والثوابت والأصول ما ليس في غيرها، وصفة (المعاصرة) التي تميز طبيعة المحيط الزمني للثقافة الإسلامية المقصودة في دراستنا.

أولا : مفهوم الثقافة في اللغة

الثقافة: مصدر مشتق من الفعل «ثَقُفَ أو ثَقِفَ»[(١)]. والمتتبّع لمعاجم اللغة العربية[(٢)] يجد أن مفهوم الثقافة في اللغة العربية يدور حول عدة معان أساسية، من أشهرها ما يأتي: (الحذق والذكاء، وتسوية المعوج، والتهذيب والتربية)، ومن معانيها في القرآن الكريم: إدراك الشيء، والظفَر به، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ [الممتحنة: ٢].

وبالنظر إلى هذه التعريفات اللغوية نجد أن منها ما يشير إلى الجانب المعنوي، كالفطنة، والذكاء، والتربية. ومنها ما يشير إلى الجانب الحسي، كإدراك الشيء، أو تسويته، ولعلنا نَلحظ أن الدلالة المعنوية في المعنى اللغوي هي الأكثر شيوعًا واستخداماً في استعمالات الباحثين والدارسين العرب

---

(١) الرازي، مختار الصحاح، ص٣٦،، مكتبة لبنان بيروت الطبعة ١٤١٥ - ١٩٩٥ تحقيق: محمود خاطر.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج٩ ص١٩، دار صادر – بيروت الطبعة الأولى. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص١٠٢٧، مؤسسة الرسالة، سنة النشر: ١٤٢٦ – ٢٠٠٥.

والمسلمين، قديماً وحديثاً. فإذا قالوا: رجل ثَقِفٌ أو مثقّف: كان المراد أنه حاذق فطِن، ثابت المعرفة بما يحتاج إليه في العلوم والمعارف[١].

ثانيا: مفهوم الثقافة في الاصطلاح

معظم ما نجده عن مفهوم الثقافة في تراثنا الأدبي والفكري القديم (العربي والإسلامي) لا يتعدى ما أشرنا إليه في المعنى اللغوي، أما استخدام كلمة الثقافة كمصطلح له دلالات ومقاصد في محيط العلماء والمتخصصين فهذا لم يظهر إلا مع شيوع استخدام كلمة الثقافة في الدراسات والأبحاث المعاصرة. ومن ذلك تعريف المجمع اللغوي لمصطلح الثقافة بأنها: «جملة العلوم والمعارف والفنون التي يُطلَب الحذق فيها»[٢].

ونَلحظ أن هذا التعريف يعتمد في مفهومه وصياغته على ما ذُكر - سلفاً - من المعاني اللغوية لكلمة ثقافة ومشتقاتها، وهذا قد لا يتناسب مع ما اشتُهر من تعريفات الثقافة في اصطلاح الأكاديميين المعاصرين، من ذلك التعريفات التي شاعت بين العلماء والمفكرين الغربيين المتخصصين في دراسة الأجناس وعلم الاجتماع... وغيرها، فقد ذكروا عدة تعريفات لمفهوم الثقافة اصطلاحاً، نلحظ أنها تعددت في الصياغات، ولكنها تشابهت في الدلالات والمفهوم، من أشهرها وأشملها: تعريف عالم الأجناس البريطاني (إدوارد تايلور) الذي يقول فيه: إن الثقافة «هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق

---

(١) ابن منظور، لسان العرب ج٩ ص٩. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص١٠٢٧. الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن ص، دار الفكر ط ١٣٩٢هـ -١٩٧٢م.٧٦. المعجم الوسيط ص١٠٢، المطبعة السلفية.

(٢) المعجم الوسيط ص١٠٢.

والقانون والعُرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بصفته عضوًا في مجتمع»[١].

ويبدو أن هذا التعريف يتحدث عن مكونات الأفراد: العقدية، والسلوكية، والفكرية، والروحية، والمادية، المكتسبة والموروثة، والتي تتشكّل منها بنية المجتمعات فكراً وسلوكًا، وواضح أن هذا التعريف يعطي مفهوم الثقافة بُعداً آخر مختلفًا عن المعنى المشهور عند كثير من العرب والمسلمين، والذي يعتمد على البناء اللغوي الشائع في قواميس اللغة كما بينتُ سلفًا.

هذا عن مفهوم الثقافة بشكل عام في عرف الأكاديميين والمفكرين المعاصرين، ولكن عندما تضاف صفة (إسلامية) إلى الثقافة، فتقول: (الثقافة الإسلامية) فلابد أن يكون للمفهوم دلالات أخرى أكثر تحديداً وتمييزاً؛ وذلك لطبيعة الإسلام، كدين ذي رسالة عالمية، ومرجعية إلهية.

ثالثا : مفهوم الثقافة الإسلامية اصطلاحاً

المتأمل لكتابات العلماء والمفكرين المسلمين المعاصرين، يجد تعدد وجهات النظر والمفاهيم حول بيان المقصود بالثقافة الإسلامية اصطلاحًا؛ وربما يرجع السبب في ذلك، إلى انحصار استخدام لفظ الثقافة في تراثنا القديم في المعاني اللغوية التي أشرنا إليها، ثم شيوع استخدام المصطلح في الدراسات المعاصرة بين المفكرين والفلاسفة وعلماء الأجناس والاجتماع الغربيين وغيرهم، بالمفهوم الذي أشرنا إليه سلفا.

---

(١) مجموعة من الكتّاب، نظرية الثقافة، ترجمة: د/ علي سيد الصاوي، ص٩، سلسلة عالم المعرفة، يناير ١٩٧٨.

ويمكن تلخيص وجهات نظر العلماء المسلمين لهذا المصطلح إلى ثلاثة اتجاهات أساسية:

الاتجاه الأول: النظر إلى الثقافة الإسلامية على أنها جملة العلوم والمعارف الإسلامية المستمَدة من القرآن والسنة، كالعقيدة، والفقه، والتفسير، والحديث... وغيرها[١]. وهي بهذا المفهوم لا تختلف في شيء عن العلوم الشرعية والدراسات الإسلامية، مما يجعل موضوعها تكرارا أو اختصارا لموضوعات الدراسات الشرعية.

الاتجاه الثاني: النظر إلى الثقافة الإسلامية على أنها دراسات لإسهامات الأمة الإسلامية في تراثها الحضاري والفكري[٢]، وهي بهذا المفهوم تدخل ضمن موضوعات التاريخ الإسلامي أو تاريخ الحضارة الإسلامية.

الاتجاه الثالث:النظر إلى الثقافة الإسلامية على أنها علم جديد معاصر، يعني بموضوعات خاصة، تتعلق بالواقع المعاصر للمجتمعات الإسلامية، نتيجة التفاعل مع موروثات الماضي ومستجدات الحاضر، في إطار الأصول والثوابت، والفرعيات والمتغيرات.

---

(١) مثل التعريف القائل: إن الثقافة مجموعة المعارف والمعلومات النظرية والخبرات العملية المستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة، التي يكتسبها الإنسان، ويحدد على ضوئها طريقة تفكيره، ومنهج سلوكه في الحياة. انظر: مصطفى مسلم، وفتحي الزغبي، الثقافة الإسلامية، ص١٨، دار إثراء للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط أولى، ٢٠٠٧م.

(٢) من ذلك التعريف القائل: إن الثقافة «مجموعة ما خلّفته الأمة من آثار حضارية وفكرية وفنية وأدبية في جميع المجالات المادية والمعنوية» انظر: محمد النبهان، مبادئ الثقافة الإسلامية ص١٣ دار البحوث العلمية الكويت ط أولى ١٣٩٤-١٩٧٤.

وأرى أن الاتجاه الثالث هو الأقرب من الناحية الأكاديمية في العصر الحاضر، والمصلحة الدعوية المعاصرة، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب:

١) النظر إلى الثقافة الإسلامية على أنها علم جديد معاصر، يجعل موضوع الثقافة الإسلامية إضافة أكاديمية جديدة في مجال التخصصات العالمية المعاصرة.

٢) جعْل الثقافة الإسلامية علما مستقلا، يجنب الدارسين والباحثين الإسلاميين التكرار والتداخل بين فروع الدراسات الإسلامية والثقافة الإسلامية، كما يفتح الباب للتوسع في دراسات واقعية موضوعية، تهتم بمعارف ومهارات مختلفة، تضاف إلى جملة العلوم الإسلامية والتاريخية.

٣) ارتباط الدارسين والباحثين المعاصرين في مجال الثقافة الإسلامية بالحاضر دراسة وتحليلا، مما يساعد على فهم التحديات المعاصرة، وامتلاك القدرة على مواجهتها والتعامل معها.

٤) اعتبار الثقافة الإسلامية علما أكاديميا جديدا، يزيد من اهتمام المؤسسات الأكاديمية والتعليمية، بما يساعد على وضع الضوابط والمهارات والمؤهلات التي تناسب الطبيعة التخصصية لهذا العلم.

٥) يمكن من خلال هذا الاتجاه إظهار الإسلام في صورته الحضارية المعاصرة، التي تتفاعل مع المتغيرات والأحداث والمستجدات؛ وتتميز بالتقاليد والعادات، وطرق الحياة المنبثقة في كثير منها من ثوابت العقيدة وروحها؛ فبهذا تكون الثقافة الإسلامية مادة حية متجددة تصلح للتعريف بالإسلام والدعوة إليه في العصر الحاضر.

وبناء على تبني هذا الاتجاه في تحديد المقصود بالثقافة الإسلامية: يلزم أن يكون هناك تعريف اصطلاحي يراعي الجانب التخصصي للثقافة كعِلم له مقوماته، وقواعده، وضوابطه بين الأكاديميين والمتخصصين، وأيضا يتوافق مع طبيعة الإسلام كدين إلهي يهدف إلى تنظيم حياة الأفراد والمجتمعات في جميع شئونهم وتصرفاتهم.

وأعتقد أن تعريف منظمة اليونسكو[١] المعتمَد بالمؤتمر العالمي للسياسات الثقافية(مدينة مكسيكو١٩٨٢م) هو الأنسب للجمع بين هذين البعدين، أعني: البعد التخصصي والإسلامي، فقد نص التعريف على أن الثقافة تعني: (مجمل السِّمات المميزة: الروحية والمادية والفكرية والعاطفية، التي يتصف بها مجتمع أو مجموعة اجتماعية، وهي تشمل إلى جانب الفنون والآداب، طرائق الحياة، وأساليب العيش معـًا، ومنظومات القيم، والتقاليد، والمعتقدات)[٢]، كونه مناسبا من الناحية التخصصية؛ فذلك لأنه نتاج مؤتمرات علمية عالمية، وأيضا لتبني كثير من المؤسسات البحثية الأكاديمية له. أما كونه مناسبا من الناحية

(١) هي وكالة متخصصة تتبع منظمة الأمم المتحدة تأسست عام ١٩٤٥. وهدف المنظمة الرئيسي هو المساهمة في رفع مستوى التعاون بين دول العالم في مجالات التربية والتعليم والثقافة. وتتبع اليونسكو ١٩١ دولة. ويوجد مقرها الرئيسي في باريس. ولليونسكو أيضـًا أكثر من ٥٠ مكتبـًا وعدة معاهد تدريسية حول العالم.http://www.unesco.org

(٢) وهذا التعريف مطابق لما خرجت به اللجنة العالمية المعنية بالثقافة والتنمية (التنوع الإنساني المبدع، ١٩٩٥)، والمؤتمر الدولي الحكومي للسياسات الثقافية من أجل التنمية (ستوكهولم، ١٩٩٨). المصدر: مكتب الخدمات الصحفية لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة.

http://www.unesco.org/bpi/eng/unescopress/2001/adiversiteculturelle.htm

الإسلامية، فذلك لأنه لا يتعارض مع أصول الإسلام وقواعده، وإنما يدخل مفهومه ضمن المنظومة الإسلامية العالمية الشاملة التي تعمل على بناء الفرد الصالح وتأسيس المجتمعات الفاضلة.

بالإضافة إلى ذلك: فإن المحلل لهذا التعريف، يجد أنه يعتمد في بنائه على عدة مقومات أساسية، لا يخلو مجتمع إنساني في منظومته الثقافية منها، ولكن قد تختلف طبيعتها من ثقافة إلى أخرى، حسب طبيعة المصادر والمبادئ التي تنطلق منها، وتعتمد عليها كل ثقافة.

وفيما يأتي نَعرض لأهم هذه المقومات التي وردت في التعريف، لنرى أنها مناسبة لعرض الإسلام في صورته الثقافية المعاصرة:

- المجتمع: هو بيئة الثقافة وحاضنتها، يتأثر بسلوك أفراده وجماعاته ومؤسساته، كما تؤثر عاداته، وتقاليده، وموروثاته فيمن يعيشون على أرضه. ولقد أولى الإسلام المجتمع، وبناءه، والحفاظ على مقوماته ومبادئه، عناية خاصة، إذ جعَله مسئولية كل مَن يعيش بين جنباته، وينعم بخيراته.
- (الروح - المادة - العقل - العاطفة) بمقدار مراعاة هذه الجوانب الأربعة، وبمدى التقارب منها، والتفاعل معها، تتميز الثقافات العالمية. فالثقافة الإسلامية - مثلا- تربي أتباعها على التوازن والاعتدال في التعامل مع هذه الجوانب الأربعة، ولا تسمح بتجاوز واحد على حساب الآخر.
- تعَد (الفنون، والآداب، وطُرق العيش...) من أهم منتجات الثقافات العالمية قديما وحديثا، فمن خلالها يمكن التعرف على طبيعة الثقافة من الناحية: المادية والروحية والفكرية...وغيرها. ولذا؛ نسمع دائما: الفن

الشرقي، أو الغربي، كما نسمع عن الفن الإسلامي. وكذلك بالنسبة للآداب، يقال: الأدب العربي، والأدب الهندي، والأدب الإسلامي.

- منظومات القيم: هي المثل العليا التي تنظّم سلوك الأفراد داخل المجتمع، وتُعتبَر من أهم الدوافع والمعايير التي تنظّم تفاعل الأفراد مع بعضهم البعض، وتعاملهم مع الآخر داخل المجتمعات وخارجها. وتتميز الثقافة الإسلامية بواقعية منظومتها القيمية؛ وقوة تأثيرها على الأفراد؛ لأنها تعتمد على الوحي (القرآن والسنة) في بناء أسسها وتحديد مسارها، وتوضيح غايتها.
- أما التقاليد: فهي ما يحاكي المعاصرون فيه الآباءَ والأجداد من أفعال وتصرفات وردود أفعال، ولا يخفى أن معظم التقاليد العتيقة والعادات الموروثة تتمتع بسلطان اجتماعي مؤثر في عرف كثير من الثقافات بشكل عام، وهي في الإسلام أقوى سلطانا عندما تلتقي مع أصول الإسلام ومبادئه، ولا تتعارض مع ثوابته ومنطلقاته القطعية.
- المعتقدات: وهي ما يؤمِن به الفرد يقينا، دون شك أو تأويل. ولكل أمة اعتقاد، تحيى به وتموت عليه، وكذلك الثقافة الإسلامية، لها معتقداتها الراسخة الثابتة التي تنبع من الإيمان بالله إلها واحدا لا شريك له، وفق ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين.

وعلى هذا، فتعريف اليونسكو للثقافة، يصلح أن يكون تعريفا للثقافة الإسلامية اصطلاحا، بشرط وصْف كل جزئية فيه بصفة الإسلام للتمييز، فعندما نقول: (المجتمع) فالمقصود بذلك: (المجتمع الإسلامي)، وعندما نقول: (العقائد والقيم) فنقصد بذلك: العقيدة والقيم الإسلامية.

وهذا ما ينسحب أيضا على الثقافات الأخرى التي تتبنى نفس المفهوم، فكل ثقافة لها ما يميزها باعتبار مصدرها، وغايتها، وهذا ما يُفهم أيضا من نفس التعريف فهو يشير -إجمالا- إلى إمكانية وجود كيانات ثقافية متعددة ومتنوعة في العالم اليوم، وهذا ما يتوافق مع مبادئ الإسلام التي تُقر بالتعددية الثقافية بين الشعوب والأمم، وتدعو للتعامل الإيجابي، والتفاعل البنّاء معها، بما لا يتعارض مع الأصول والثوابت الشرعية، نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وأعتقد أن الثقافة الإسلامية- بهذا المفهوم الذي اعتمدناه- تضع المتخصصين من العلماء والمفكرين المسلمين على أبواب علم جديد في موضوعاته وتناوله، مما يتطلب دراسات وأبحاثا ميدانية معاصرة، يمكن من خلالها إظهار الإسلام عبر منتجات الثقافة الإسلامية في صورة حضارية معاصرة، شاملة للجوانب: الروحية والعقلية والمادية، وقابلة للتفاعل مع المتغيرات والأحداث والمستجدات؛ ومتميزة بالتقاليد والعادات، وطرق الحياة المنبثقة في كثير منها من ثوابت العقيدة وروحها؛ فذلك مما يجعل الثقافة الإسلامية مادة حية متجددة، تصلح للتعريف بالإسلام والدعوة إليه.

رابعا: المقصود بالمعاصرة

لا يمكن للثقافة إلا أن تكون صنيعة عصرها، وإلا فستكون تاريخا يحكى، أو معرفة تتناقل بين الأجيال. وأعني بالمعاصرة: هو العصر الحاضر الذي يعيش فيه المنتمون إلى هذه الثقافة، فمن خلالهم تتفاعل مكونات الثقافة: المصادر الثابتة والمتغيرة، المبادئ والقيم، الأحداث القديمة والمستجدات الحديثة،... وغيرها، فتنتج الثقافة من خلال حركة الأفراد وتفاعل المجتمعات.

وليس معنى ذلك الاكتفاء بالمعاصرة عن القديم، إذ لا يتوقع أن يكون هناك حاضر لمن لا تاريخ له، أو أن يكون هناك جديد لمن لا قديم له. إنما يمكن القول: إن الثقافات تَنشأ من تربة الماضي وتُروى بمياه الحاضر، ويعايش المعاصرون ثمرتها ثم تمتد أغصانها لتصل اللاحقين بالسابقين.

والثقافة الإسلامية هي أقدر الثقافات على تحقيق المعاصرة، فهي تَنبع من مصادر ثابتة لا تتغير، وتتمتع بشمولية الزمان والمكان، وبعالمية المنهج والرسالة، وبمرونة الحركة والتطبيق، وقابلية التطوير والتجديد، والتعامل مع المستجدات؛ هذا بالإضافة إلى عمق الخبرات الإنسانية العميقة في مجالات الحياة المتنوعة.

والمعاصرة التي نقصدها في الثقافة الإسلامية: هي التي تَفهم طبيعة العصر الذي توجد فيه، وتُدرك حجم تحدياته وعقباته، وتستفيد من خبراته وإنجازاته، وتفرض نفسها في واقعه ومحدداته، كما أنها تملك القدرة على التعايش والتفاعل بين محاوره ومرتكزاته، من غير انحراف عن مبادئها، أو خديعة بغيرها، أو الخضوع والذوبان بفعل المؤثرات مِن حولها.

المبحث الثاني

خصائص الثقافة الإسلامية المعاصرة

تبين لنا مما سبق أن الثقافة وليدة عصرها المتفاعل مع أصولها وقيمها، وعاداتها وتقاليدها، ومع واقعها ومستجدات حاضرها، وظروف وأحداث عصرها. ومن هنا تأتي الثقافات متشابهة في بعض الملامح ومتمايزة في بعضها الآخر، وهذا أمر طبيعي متوقع، إذ لا يمكن أن يكون نتاج المصادر والأسس والقيم المتعددة متحدَ التشابه والأوصاف، كما لا يمكن أن يكون تشابهٌ كاملٌ بين ثقافة واحدة في تاريخها وحاضرها.

ومن هنا كان عقد هذا المبحث حول الخصائص، لنتعرف على أهم ما يميز الثقافة الإسلامية عن غيرها من الثقافات، وما يميز الثقافة الإسلامية المعاصرة عن التاريخية القديمة منها.

أولا: المقصود بالخصائص

الخصائصُ: جمع، مفرده: خَصيصة. والخَصِيصَةُ: هي الصِّفة التي تميِّز الشيءَ وتحدِّده[1]. والمقصود بخصائص الثقافة الإسلامية المعاصرة: هي الصفات والميزات التي تحدد طبيعة الثقافة الإسلامية المعاصرة نوعا وزمانا. نوعا: في تميزها عن غيرها من الثقافات العالمية المختلفة، وزمانا: فيما يميّز حاضرها عن ماضيها.

---

(١) المعجم الوسيط، ج١، ص ٤٩٦. وانظر:
http://kamoos.reefnet.gov.sy/?page=entry&id=284833

ثانيا: أهمية دراسة ومعرفة الخصائص

ترجع أهمية دراسة الخصائص ومعرفتها إلى عدة أسباب. منها ما يأتي:

- معرفة الشيء وحسن تقديره يتحققان بالقدرة على التمييز بينه وبين الأشياء الأخرى، وبدقة توصيفه ووضوح ملامحه. وهذا ما يفرق بين المعرفة السطحية والمعرفة الحقيقية للأشياء، وبهذه المعرفة الوصفية الدقيقة، يستطيع الإنسان أن يقدر حقيقة الأشياء والمعاني، وأن يضعها في المكان اللائق بها.
- الإلمام بالخصائص يعين على الممارسة والتطبيق، فلا يمكن للفرد المعاصر المنتسب إلى الثقافة الإسلامية أن يزعم الانتماء إليها وهو غير متمثل لخصائصها في تصرفاته وسلوكياته، فالأصل أن تُرى هذه الخصائص في أفعال وسلوكيات الأفراد، ومن خلال المجتمعات التي تنتمي إلى هذه الثقافة، ودراسة الخصائص مما يعين على تحقيق ذلك، خاصة عند تحقق المعرفة والتقدير لها.
- الدراسات الأكاديمية، تعتمد دائما على الوصف الدقيق، والتحليل المنطقي، والمقارنة العلمية، ودراسة الخصائص، تعد من أهم الوسائل التي تدعم هذه المهارات، وتعمل على تفعيلها في ذهن الباحثين والدارسين.

ولهذه الأسباب وغيرها، كان من المهم -ونحن نتحدث عن الثقافة الإسلامية المعاصرة- أن نشير إلى أهم خصائصها التي تُعرف بها، ويتميز أفرادها من خلالها في المجتمعات.

والمتأمل في تاريخ الثقافة الإسلامية وحاضرها، يجد أنها تتمتع بخصائص متعددة، يعود كثير منها إلى طبيعة مصادرها الوقفية الثابتة، وأيضا إلى عمقها التاريخي، وحاضرها الممتد طولا وعرضا في أرجاء المعمورة.

ونلحظ عند دراسة خصائص الثقافة الإسلامية بنظرة معاصرة، أنها تأتي في ثلاثة أنواع، وذلك لطبيعة نسبتها وعلاقتها بالإسلام، ومرونتها في التعامل مع الواقع ومتغيراته. وهذه الأنواع هي:

١ - خصائص ثابتة غير متغيرة.
٢ - خصائص ثابتة في المضمون متغيرة في الشكل.
٣- خصائص متغيرة شكلا ومضمونا.

وهذا ما سنوضحه من خلال الحديث عن تفاصيل الخصائص فيما يأتي:

أولا: الربانية

وهذه من نوع الخصائص الثابتة في الثقافة الإسلامية، لا تُغيَّر لزمان ولا لمكان، ولا تتأثر بتغير الظروف والأحوال؛ وذلك لأن تغيُّرها يرفع عن الثقافة الإسلامية أهم ما توصف به وهو الإسلام، ويَصرفها عن مصدر بنائها وتميزها.

والمقصود بـ(الرَّبانيُّ): هو المنسوب إلى الرَبّ[1]. فتقول: فرد ربّاني، وثقافته ربانية. وهذه النسبة تفيد معنيين أساسيين، يمثلان جوهر هذه الخاصية في الثقافة الإسلامية، وبيانهما كالآتي:

المعنى الأول: (الرباني) أي الذي يعبُد الرّبَّ. والعبادة في جوهرها: هي الاستسلام والخضوع المطلق لله وفق ما يُرضيه؛ وهذا ما يقابله في أدبيات الثقافة

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص ٤٠٣.

الإسلامية بـ (ربانية الغاية) أي أن غاية الثقافة الإسلامية -إجمالا وتفصيلا- هي إرضاء الله تعالى، بالتزام أوامره وتحقيق مراده. ويتحقق ذلك من خلال الأفعال والأقوال والتصرفات التي يقوم بها الفرد المنتمي إلى الثقافة الإسلامية، ولذا نجد القرآن الكريم الذي هو أهم مصادر الثقافة الإسلامية يؤكد في مواضع كثيرة منه على أن كل ما يقوم به الفرد في هذه الحياة يجب أن يكون من أجل ابتغاء وجه الله والفوز بثوابه، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، حتى العادات والضرورات والترفيهيات، كالطعام والشراب والنوم واللعب... وغيرها، يمكن أن تتحول إلى نوع من العبادات والقربات التي يحبها الله ويثيب عليها، وذلك عند توفر ثلاثة شروط:

١- أن تكون النية فيها خالصة لله.
٢- أن يكون العمل موافقا لشرع الله.
٣- ألا يكون العمل مُعَطِّلا لفريضة من فرائض الله.

ولنا أن نتخيل أن الآداب والفنون والعمارة والعادات والتقاليد والفكر والحضارة... وغيرها مما يمثل الثقافة، ويعد في عرف كثير من الثقافات من أمور الدنيا المادية، تعتبره الثقافة الإسلامية عملاً صالحاً تماماً، كالاهتمام بالروح وأداء العبادات والالتزام بالأخلاق وأمور العقيدة... وغيرها مما يتعلق بالروحانيات وأمور الآخرة؛ وذلك لأن الغاية قد تحققت في كل، وهي ابتغاء وجه الله تعالى؛ على عكس ما نجده في الثقافات الأخرى التي قد تتعدد الغايات والدوافع فيها فيما لا يتجاوز حظوظ الدنيا من المتع والشهوات المادية.

ولوضوح الغاية وتوحيدها تميزت الثقافة الإسلامية بالربانية من بين الثقافات الأخرى، تاريخا وحاضرا، وستظل متميزة بها ما بقيت، ولربما يضعف الجانب

التطبيقي للربانية من عصر إلى عصر، ولكن لا يمكن أن يزول أو يُستبدل.

والمعنى الثاني للربانية: هو كاملُ العِلْم والعَمل(١)، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وهذا المعنى يشير إلى ما يُعرف بـ (ربانية المصدر)، فالقرآن الكريم والسنة المطهرة هما أهم مصادر الثقافة الإسلامية في كل زمان ومكان، فمن خلالهما تُؤسَّس عقيدة التوحيد الخالصة للأفراد، وتَتحقق منظومة العبادات والأخلاق في المجتمعات، وتُبنى الروحانية في صفائها واعتدالها، وتَنطلق حركة الفكر والعمارة والحضارة والتعامل مع الآخر، وفق ضوابطهما وآدابهما.

ومن هنا كانت الثقافة الإسلامية (ربانية المصدر)، فهي لا تعتمد في أصولها وقواعدها على الفلسفات والأفكار التي أنتجها العقل البشري، وإن كانت تحترمها وتستفيد منها، ما لم يكن بينها وبين الأصول الربانية تعارضٌ أو تنافر.

ويبقى أن نشير إلى شَرطٍ هام في هذا المعنى من الربانية، وهو أن ربانية الثقافة الإسلامية في مصدرها لا تتحقق - فقط - بكمية العلم الشرعي والمعارف الإسلامية التي يحصل عليها الأفراد، ولا بكمية المنتجات الفكرية والعلمية داخل المجتمعات، ولكن لابد -لتحقيق الربانية المقصودة هنا- من نقل ما في المصادر الربانية إلى ساحة العمل والتطبيق والممارسة، على مستوى الأفراد والمجتمعات المنتمية إلى الثقافة الإسلامية.

ووجود هذا الشرط، يوضح لنا الفرق بين الشعوب التي تدّعي الانتماء إلى الثقافة الإسلامية برفع الشعارات والاهتمام بالشكليات ونشْر المقولات، والشعوب التي حققت الربانية في العلم والعمل معا، فكانت أصدق تعبيرا عن

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص ٤٠٣.

ثقافتها، وأكثر تأثيرا في عالم الثقافات، خاصة المنتمية في مصادرها إلى غير الربانية، جاء في الأثر أن أصحاب النبي ﷺ «كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ، فلا يجاوزون العشر حتى يعلَموا ما فيه من العلم والعمل». قال الراوي: «فتعلّمنا القرآن والعلم والعمل جميعا»[١]. وعلى هذا الفهم كان تأسيس مجتمع المدينة النبوي الذي تأسست ونشأت فيه الثقافة الإسلامية الأولى لتكون نموذجا في تحقيق ربانية المصدر بالعلم والعمل، وهذا ما يجب أن تتحلى به الثقافة الإسلامية المعاصرة، التي ربما تشكو من كثرة العلم والأقوال مع قلة العمل وضعْف القُدوات.

أهم مظاهر الربانية في الأفراد والمجتمعات التي تنتمي إلى الثقافة الإسلامية المعاصرة:

تعبِّر الثقافة الإسلامية المعاصرة عن نفسها في خاصية الربانية في الغاية والمصدر من خلال عدة مظاهر. يعتبرها بعض الباحثين من أهم الفوائد والثمار التي يحصدها أفراد ومجتمعات الثقافة الإسلامية، عند فهمهم وتطبيقهم لهذه الخاصية، ومن أهم هذه المظاهر والفوائد ما يأتي:

- الإتقان والإبداع والإحسان؛ لأن الربانية في الغاية تقتضي استحضار معية الله، ومراقبته في كل شأن من شئون الحياة، ومن هذا نؤكد أن تميز نجاح الفرد وتفوقه في أمور الحياة العامة، يزداد بمقدار وضوح غايته والقرب من ربه. جاء في الحديث: «**الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢].

---

(١) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج٢، ص٤٦٨، المكتبة الشاملة.

(٢) حديث متفق عليه. راجع: محمد بن فتوح الحميدي، الجمع بين الصحيحين، تحقيق: علي البواب، ج١، ص٩٢، دار بن جزم بيروت-لبنان، ط٢، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

- الترابط والتسامح بين أفراد المجتمع؛ لأن الربانية في الغاية تقتضي الانشغال بالله والعمل لرضاه، ومن هنا يأتي التجاوز عن المسيئين والتعاون مع المحسنين. ولذا قالوا: الإحسان إلى الخَلق أقرب الطرق إلى الخالق، والعفو عن المخلوق سبيل لنيل مغفرة الخالق. يقول تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ﴾ [النور: ٢٢].
- السلوك الواعي المبني على وضوح الغاية ومعرفة الطريق الموصل إليها، وهذا لأن الربانية تقتضي حُسن التوجه إلى الله بالسير على شرعه الذي ارتضاه، يقول الله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، كما أن ربانية المصدر تقتضي اتخاذ القرآن والسنة مرجعا أساسيا في جميع التصرفات، ولا يخفى ما في القرآن والسنة من هُدى ونور، لكل مَن آمن بهما وعمل بمقتضاهما.
- ثبات المبادئ والقيم على مدار التاريخ، وعدم تحوّلها أو تلوّنها لصالح حزب قومي أو مذهب فكري أو نظرية مادية، ولهذا فلا يمكن للثقافة الإسلامية تحت أي ضغط من الضغوط أن تُبدّل عقيدتها أو أن تتنازل عن علاقتها بربها، سواءً أكان ذلك على مستوى الأفراد، أم كان على مستوى المجتمعات، وإلا أصبحت نوعا آخر من الثقافات.
- صبْغ الأعمال والتصرفات والأقوال بذكر الله تعالى والتعلق به، ويعُد هذا من أهم مظاهر الثقافة الإسلامية بين الأفراد في تعاملاتهم اليومية، كما يعتبر من أقوى الدوافع للإنجاز وتقديم الخدمات داخل المجتمع، يقول الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١-٣]، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣]، ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧]، فنجد صبغة الربانية عند القراءة وتحصيل العلم، وأيضا عند العبادة

وبناء الروح، كما نجدها عند الأخلاق وبناء القيم.

- التعبير المستمر عن نفسها في معالم محسوسة تظهر في المجتمعات، كبناء المساجد، ومؤسسات نشر المبادئ الربانية والدعوة إليها، وارتداء الحجاب للمرأة المسلمة، والتزام الخُلق الحسَن في التعاملات، ثم عن طريق نشر المعروف والتضييق على المنكر.

وبنظرة تحليلية إلى واقع المجتمعات المنتمية إلى الثقافة الإسلامية اليوم، نرى أنها تحتاج - في كثير منها - إلى إحياء معاني الربانية الحقيقة، وتحويلها من شعارات جوفاء أو هتافات صاخبة إلى أن تكون سمتا عاما لأفراد المجتمع وعلاقتهم ببعضهم، فتمثل لهم المرجعية العليا في فض المختلف حوله والمتشابه فيه من قضايا العصر، وكذلك في الأعمال والأنشطة والبرامج التي تقدّمها الثقافة الإسلامية لأفرادها ولغيرهم.

وبالجملة نقول: يجب أن تعيش مجتمعات الثقافة الإسلامية روح الربانية الحقة، المستوحاة من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

ثانيا: الإنسانية والعالمية

وهذه الخاصية من نوع الخصائص الثابتة في مضمونها المتغيرة في شكلها وتطبيقاتها المعاصرة؛ وذلك لطبيعة الاحتياجات والظروف التي يمر به الإنسان والعالم من زمان إلى زمان، وهذا ما سنوضحه فيما يأتي.

والمقصود بالإنسانية: هي مراعاة طبيعة الإنسان والعمل لخدمته وصلاحه، بما يعينه على القيام برسالته في الحياة. **أما العالمية**: فهي الامتداد الأفقي والرأسي للإنسانية من خلال تواصل الإنسان وتعاونه مع الآخر. فالإنسان هو

أساس تحقيق العالمية، والعالمية لا تتحقق إلا بالاعتراف بالإنسان وتقدير حقوقه عملا وتطبيقا، لا شعارا ولا تنظيرا، ومن هنا جاءت العالمية متلازمة مع الإنسانية كخصيصة من خصائص الثقافة الإسلامية المعاصرة.

ولعل اختصاص الثقافة الإسلامية المعاصرة بالجمع بين الاثنين معا يعود إلى انتسابها إلى الإسلام، وقيامها على ثوابته ومبادئه التي تهدف - أساسًا- إلى مخاطبة الإنسان بصفته، وتلبية حاجاته الفطرية... وغيرها، وتوجيه غرائزه في توازن واعتدال، وحمايته مما يضره داخليًا وخارجيًا، بما يعود عليه وعلى مجتمعه المحلي والعالمي بالخير والأمن والاستقرار.

والناظر إلى الثقافات المعاصرة الأخرى ربما يجد اهتماما بالفرد، قد يصل إلى جعْله ندّا للخالق سبحانه، ولكن ما نقصده هنا هو الإنسان المخلوق بصفته المجردة التي لا تنتمي إلى وطن أو عِرق أو دين.

ومن خلال مفهوم الإنسانية بين الثقافات نستطيع أن نستوضح مفهوم العالمية أيضا، فهل العالمية التي تمثل أبناء الجنس الواحد؟ هل هي اعتراف للجميع بالحقوق والواجبات الإنسانية العامة؟ أم هي لقوم دون آخرين؟ هذه أسئلة يجب أن نتطرق إليها قبل الحديث عن مظاهر الإنسانية في الثقافة الإسلامية، لنستطيع أن نَرى الفارق ونميّز الشيء بما يستحقه.

مظاهر الإنسانية في الثقافة الإسلامية المعاصرة:

١) التكريم العام للنوع الإنساني: فالثقافة الإسلامية - بشكل عام - تقدّر الإنسان لكونه إنسانا، دون النظر إلى لونه أو عرقه، وذلك لأنها تؤمِن بقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠]، فالتكريم لهذه النسبة إلى آدم فحسب، دون اعتبار لمتغيرات وصفات أخرى، ويزداد

هذا الأمر وضوحا وتقديرا عندما نعرف أن الإسلام يعتبر الناس جميعا من آدم، فهو أبوهم الأول، وهم أولاده، وهذا ما أعلَنه النبي ﷺ في خطبته العالمية عند حجة الوداع، إذ قال ﷺ: «**أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب**»[١]، وليس هذا النوع من التكريم شعارا للدعاية أو إعلانا للمجاملة، إنما هو مبدأ للإيمان والتطبيق.

ومن أروع ما يُستَدل به على ذلك ما حدث داخل المجتمع المدني عندما مرّت جنازة، فقام الرسول ﷺ احتراما لها، فقيل له: إنها جنازة يهوديّ، فعلّق النبي ﷺ على ذلك بقوله: «**أليسَت نفسا**»[٢].

ومن التطبيقات العملية لهذا النوع من الاحترام والتقدير للإنسان ما نراه داخل المجتمعات الإسلامية القديمة والمعاصرة عند مقابلة الآخر، بقول: (السلام عليكم)، سواء عرَفه أو لم يعرفْه، وذلك اتباعا لهدي النبي ﷺ، الذي قال: «تَقرأ السلام على مَن عرفتَ ومَن لم تَعرف»[٣]، وذلك عند سؤال السائل: أيّ الإسلام خير.. ونَفهم من هذه الممارسة أن التحية والاحترام في الإسلام يوجّه للإنسان قبل معرفة اسمه وإدراك قَدره ووضوح دينه، فهو بهذه الهيئة الإنسانية المكرّمة التي صنعه الله عليها يستحق الاحترام والتقدير، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وهذا ما جعَل كثيرين من أتباع الثقافات الأخرى ممن يقومون بزيارة بعض المجتمعات الإسلامية أن يقوموا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم:(٢٣٥٣٦)، وقال الأرنؤوط في تعليقه: إسناده صحيح. مؤسسة قرطبة – القاهرة.

(٢) المصدر السابق: رقم(٢٣٨٩٣) وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. ج٦، ص٦.

(٣) متفق عليه، محمد فتوح، الجمع بين الصحيحين، ج٣، ص٣٣١.

بحِفظ وترديد قول (السلام عليكم) لتكون بداية التقاءٍ ثقافي مع مجتمعات الثقافة الإسلامية، وحبذا لو فهموا المعنى الإنساني في هذه الأحرف المعدودة التي تدل على الاحترام الراقي والتواصل الآمن مع من عرفتَ ومن لم تَعرف.

٢) المساواة بين الناس: في الحقوق والواجبات، والفرائض والتشريعات، والعقوبات والمثوبات... وغيرها، فالثقافة الإسلامية تنظر للجميع بمنظار واحد، وتتعامل مع الجميع بمعيار واحد، وذلك انطلاقا من تعاليم الإسلام التي منها قول النبي ﷺ في خطبة الوداع: «**أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى**»[(١)].

ومن أبرز ما يُستَدل به على هذه المساواة في التطبيقات العملية داخل المجتمعات الإسلامية القديمة والمعاصرة: مظاهر العبادة في مجتمعات المسلمين، فالجميع يؤدّون الصلاة في الجماعة مصطفّين في صفوف بحسب قدومهم، فالأسبقية في الحضور هي المعيار، والأسبق هو الأول بلا منازع. وكذا لبس الإحرام الموحّد في اللون والهيئة أثناء فريضة الحج، لا يُعفى منه مَن فُرض الحج عليه. وكذا بدء الطعام والشراب للصائمين في شهر رمضان مع دخول وقت المغرب، وكذلك الإمساك عنهما مع دخول وقت الفجر، لا يُستثنى فيه أحد ممن أراد الصوم، وكذلك الزكاة لا يُنظر فيها إلى المالك وقَدره الاجتماعي، إنما الأصل فيها مقدار ما يَملك مما تجب فيه الزكاة.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم:(٢٣٥٣٦)، وقد سبق تخريجه.

اعتبار مصلحة الإنسان وتقدير غرائزه، تخضع الثقافة الإسلامية لكثير من الأحكام والقوانين الشرعية التي تهدف في جملتها إلى جعْل الطيبات النافعة للإنسان مباحة حلالا، وجعْل الخبائث المضرّة بالإنسان حراما منبوذا، يقول الله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فقد أحلّ الله ما يحتاجه الإنسان ويُقيم بنيانه، وحرّم ما يضره ويَهدم بنيانه. مثال ذلك: الطعام والشراب، فالإنسان مأمور بالأكل والشرب؛ لأنه لا قوام ولا حياة بدونهما، وفي نفس الوقت نجده منهيا عن الإسراف في الطعام والشراب، وذلك لما يترتب على الإسراف والمبالغة فيهما من إيذاء الجسد بالأمراض والأسقام. يقول تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ [الأعراف: ٣١]، فمنفعة الإنسان معتبرة شرعا، كما أن المضرة به مدفوعة شرعا، بعكس ما نجده في بعض الثقافات الأخرى التي تعتبر قضية الأكل والشرب وتلبية الغرائز من الحريات الشخصية المطلقة، يأكل الإنسان ويشرب ما يشاء كَمّا وكيفا، ويُنفّذ غرائزه بالكيفية التي يراها، ثم كانت الآثار السلبية في ذلك على الإنسان أمراضا وتخمة وكسلا، مما عاق حركة التقدم في كثير من المجتمعات.

تقدير ومراعاة العوارض التي تمر بالإنسان: يُكلّف الإنسان داخل منظومة الثقافة الإسلامية بأداء كثير من العبادات: كالصلاة والصوم والحج والزكاة، ولكن لإنسانية الإسلام الذي توصف به هذه الثقافة، نجد أن هذه الفرائض تُخفف في أدائها وهيئتها ووقتها تبعا للظروف والعوارض التي قد يمر بها الإنسان في حياته كالمرض والسفر والفقر وعدم الاستطاعة...وغيرها، فقصر الصلاة وجمْعها والفطر في رمضان يكون رخصة للمسافر، كما أن المريض يؤدي الصلاة على الحالة التي تناسبه، ويُفطر في شهر رمضان أيضا. والفقير لا زكاة عليه؛ لأنه لا مال له، ويعفى من أداء فريضة الحج حتى يستطيع، يقول الله

تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

الهداية المستمرة والإرشاد الدائم. لا تترك الثقافة الإسلامية الإنسان عند مرحلة من المراحل بدون هداية وإرشاد، بل دائما تحتضن أفرادها وتمدهم بما يحتاجون إليه في جميع مراحل العمر، فمثلا: عندما يولد الإنسان تكون الآداب والتعليمات التي يجب أن تمارس عليه عند أول ظهور له في الحياة، مثل: الأذان، والإقامة في أُذنيه، والتسمية، والاحتفال بمقدمه... وغيرها. وأيضا عند الوفاة وتوديع الحياة تكون التعليمات والإرشادات. وما بين الولادة والوفاة يجد الإنسان القرآنَ الكريم يدله على أهدافه في الحياة، وما عليه وما له في تعامُله مع شرائح المجتمع الداخلية وغيرها، يقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. وأروع ما في هذا التبيان القرآني هو إخبار الإنسان بما يكون عليه قبل مجيئه إلى الحياة، وما سيكون عليه بعد انتقاله من الحياة.

ولاشك أن هذا البيان يجعل الإنسان داخل المنظومة الثقافية الإسلامية على بيّنة من أمره، بما يعينه على أداء دوره والاستفادة من عُمره، وتحقيق أعلى المكاسب المرجوّة في حياته وبعد مماته.

مظاهر العالمية في الثقافة الإسلامية المعاصرة:

كل ما يُتحدّث عنه في جانب الإنسانية داخل الثقافة الإسلامية يحمل صفة العالمية مفهوما وتطبيقا، بمعنى أنه يشمل العالمين جميعا طولا وعرضا، دون تميز أو تحيز لوطن أو جنس. ولعل اهتمام الثقافة الإسلامية بالإنسان- على النحو الذي ذكرناه سلفا- هو الذي أكسَبها هذه العالمية على مستوى المفاهيم والقيم والاعتقاد وكذلك العادات والتقاليد؛ فما كان لهذه الثقافة الإسلامية أن

تبلُغ القارات إلا عن طريق هذا الإنسان، الذي وَجد إنسانيته داخل بيئة الثقافة الإسلامية، مما دفَعه إلى الإيمان بها وحمْل مبادئها بالتطبيق والفعال قبل الأقوال والعبارات. فكان هذا الإنسان هو مفتاح الثقافة نحو العالمية.

ومما ساعد على ذلك أيضا هو تبنّي الثقافة الإسلامية لجملة من المبادئ والقيم العالمية التي استطاعت أن تربط الإنسان مع الإنسان والأمم مع الأمم لتتكون منها هذا العالمية المتميزة في ظل منظومة الثقافة الإسلامية، ونستطيع أن نستوضح حقيقة هذه العالمية من خلال الحديث عن مظاهرها التي تتجلى في المفاهيم الآتية:

تقدير الاختلافات بين الأمم والشعوب واعتبارها آية تستحق التأمل والتفكر، يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]، والآية: هي العلامة التي تستحق الاحتفاء بها والوقوف على مآثرها. واللطيف هنا أن آية الاختلاف في الألسن والألوان بين الخَلق أعقبَت - في الذكر - آية السماوات والأرض، ولعل الجامع في كلٍ هو العظمة والجمال، فالأول: يَدفع إلى التقدير والتعظيم، والثاني: يدفع إلى السعادة وراحة البال، ولعل هذا المعنى يفسّر كيف استطاعت الثقافة الإسلامية أن تضم بين جنَباتها أجناس العالم: الأبيض والأسود والأحمر، والعربي والأعجمي... فكلُ يجد مكانه دون عنصرية أو قومية أو أنانية، ولذا لا يمكن لثقافة أن تزعم العالمية أو تتصف بها وهي تعتمد التفرقة العنصرية، أو تستخدم قوالب متعددة من المعايير في التعامل والحُكم على الأمم والشعوب الإنسانية.

التفاعل والتواصل المتبادَل بين شعوب العالم، تعترف الثقافة الإسلامية بالآخر وتؤمِن بالالتقاء والعمل حول دائرة القواسم والقيم المشتركة، كأصل

الخَلق والنشأة والكرامة الإنسانية، والحقوق الإنسانية العامة، ووحدانية الإله، وحرية الاختيار وعدم الإكراه، ووحدة القيم والمثل الإنسانية العليا، وتعتمد الثقافة الإسلامية في ذلك على قاعدة الإسلام في ممارسة التعارف العام بين الأمم والشعوب، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ونَلحظ أن كلمة تعارف تقتضي التفاعل بين أطراف، والمقصود بها الانفتاح المتبادَل على العالم، استفادة وإفادة فيما يتعلق بالقواسم المشتركة، ولابد أن يتم ذلك على قاعدة الاحترام والتقدير المتبادَل، والأمانة والشفافية في الأخذ والعطاء، وإلا ستكون هذه العالمية نوعا من التبعية والاستغلال، وتضخيما لأمة على حساب أخرى، الأمر الذي لا يمكن من خلاله إيجاد عالمية إنسانية متناغمة.

- التأكيد على وحدة الأصول والثوابت، والاعتراف بالأعراف والعادات والتقاليد، ما لم تتعارض مع الأصول، وهذه من أقوى مظاهر عالمية الثقافة الإسلامية، فهي تؤكد على نقاط ارتكاز أساسية تجمع وتوحد المنضمين تحتها، وفي نفس الوقت تقبل ما تعارفَت عليه الشعوب من العادات والتقاليد التي تنسجم مع روح الثوابت المرجعية لهذه الثقافة.

مثال ذلك: طريقة الاحتفال بالأعياد الإسلامية، وطُرق حداد المرأة المتوفى عنها زوجها، ولون وهيئة حجاب المرأة المسلمة، فالجميع معترف بالقواعد والأسس الشرعية في أصل هذه الأمور وإن اختلفوا في طُرق التعبير عنها، وهذه من الشكليات المتغيرة التي تُقبل في ظل الثقافة الإسلامية ما دام تأكّدَ ثبات المضمون ووحدة الأصول.

الحرص على هداية العالم وإرادة الخير لشعوبه، من المصطلحات الشائعة في قاموس الثقافة الإسلامية مصطلح (الدعوة) الذي يعني نشر المبادئ والقيم الإسلامية بين الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، وإن أفضل ما يمكن مشاركة العالم فيه هو رسالة الإسلام التي تَنبثق منها الثقافة الإسلامية، يقول الله تعالى عن رسول الإسلام: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وانطلاقا من هذه الرحمة اتسعَت رقعة الإسلام وأصبح له أتباع في أرجاء العالم كله.

ويجب أن نُشير إلى أن هذه الدعوة للعالمين فريضة ثابتة لا تتغير، أما طُرق تبليغها ووسائل توصيلها فذلك مما يجب تغييره وتطويره حسب متطلبات العصر وظروف الأفراد.

المؤتمر السنوي لمندوبي الثقافة الإسلامية على مستوى العالم. يحدث ذلك أثناء فريضة الحج في كل عام، إذا يحضر ممثلون من بقاع شتى من العالم، هتافهم واحد، وهدفهم واحد، ومناسكهم واحدة، رغم اختلاف الشكل واللون واللغة والملبس والعادات والتقاليد...، ولعل ذلك من أبرز ما يستَدل به على عالمية الثقافة الإسلامية في خصائصها وحيويتها وسرعة انتشارها والتعريف بها والدعاية المتجددة لها.

ثالثا: التنوع والاختلاف

يعتبر التنوع والاختلاف من خصائص الثقافة الإسلامية الثابتة في آدابها وقواعدها المتغيرة في أشكالها ومظاهرها، ولربما اشتركَت ثقافات أخرى مع الثقافة الإسلامية في خصيصة الاختلاف والتنوع، ولكن ما يميز الثقافة الإسلامية في هذا هو ثباتها على قواعدها وآدابها المتعلقة بالاختلاف والتنوع، ثم موروثاتها وتاريخها الذي حوى إنتاجات متنامية لإتاحة الاختلاف والاحتفاء بالتنوع.

ومن المؤكد أن التنوع والاختلاف يُعَد من أهم النتائج الحتمية لخصيصة الإنسانية والعالمية التي تتميز بها الثقافة الإسلامية كما أشرنا سلفا؛ ذلك أن فهْم حقيقة الإنسان والعمل لصالحه والانفتاح على العالم بنشر دعوة الخير فيه وقبول التعامل مع الآخر في إطار القواسم المشتركة يقتضي الإقرار بحقيقة التنوع والاختلاف وقبول التعامل معها.

ولا أقصد بالتنوع والاختلاف ما يكون - فقط- في العرق والجنس واللون واللغة...، فقد يشترك في هذه الأشياء كثيرون، ولكن يبقى الاختلاف بينهم في الرأي والفكر ووجهات النظر من أدق الأشياء التي تتنوع فيها مشاربهم، ويقاس بها القدرة على استيعابهم لبعضهم والتعايش فيما بينهم.

وهذا التنوع والاختلاف الفكري هو ما تتميز به الثقافة الإسلامية عن غيرها، فهي وإن كانت تقوم على مبدأ الوحدة البشرية في الخَلق والنشأة، إلا أنها تعتبر الاختلاف بينهم مظهرا طبيعيا فطريا، كمظاهر الاختلاف بين المخلوقات في هذا الكون، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨]. ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

وفيما يأتي من حديث عن المظاهر يؤكد هذا المفهوم.

مظاهر التنوع والاختلاف في الثقافة الإسلامية

احترام العقل والدعوة إلى تفعيله بالتفكير والتعقل، خلق الله الإنسان في أحسن تقويم وزوده بالسمع والبصر والعقل. يقول تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، والمقصود بالأفئدة هنا «العقول»[١]، ثم حث الله الإنسان على استخدام العقل بحرية ومسؤولية، يقول تعالى داعياً لإعمال العقل وتفعيله من خلال آيات الله المحيطة بالكون: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٤]. ثم شاءت إرادة الله تعالى أن يجعل من آياته الباهرة بين خَلقه اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأفكارهم، يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]، ومن هنا جاء تكوين الإنسان وتكريمه مبنيا على: عقله المفكر ولسانه المعبر ولونه المميز. ولاشك أن اجتماع هذه الأمور الثلاثة يعد من أقوى الأسباب التي تدعو إلى تنوع وجهات النظر، وتعدُّد طرق التفكير، واختلاف الحُكم على الأشياء.

السماح بالجدال والمراء في إطار الضوابط والقواعد. المعروف أن الجدل يولَد على مائدة الاختلاف وتعدد وجهات النظر، وهو مسموح به في الإسلام ما كان مضبوطاً على قاعدة (الأحسن) التي أشار الله إليها في قوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥] فالمطلوب: تهذيبه وتحسين أدائه وليس النهي عنه، وفي هذا نوع اعتراف به وما تولَّد منه.

---

(١) الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٤٠.

والحقيقة المعنية هنا أن الإنسان ليس - فقط - مفطوراً على الجدال والحوار، الذي يَدفعه اختلاف الآراء وتنوُّع الأفكار، إنما هو من أشد الأشياء قدرة على الجدال، كما يُفهم من وحي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]. وعجيب الأمر أن هذا الخلاف وما ترتَّب عليه من الجدل لم ينته عند انقضاء الدنيا، إنما نراه يمتد مع الإنسان بعد الممات ويوم العرض والحساب، يقول تعالى: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١].

التراث الفكري الموسوعي للثقافة الإسلامية. وهذا من أبرز ما تتمتع به الثقافة الإسلاميةكمنتَج لتفاعل العقل البشري وتلاقُحه مع الأفكار والرؤى الأخرى، في بيئة تُقرّ بالتنوع وتدعو للتفكر وتحترم اختلاف الرأي، وتوجِّه دوما إلى الأحسن في التناول والتعامل مع الرأي المخالف. فالمؤلفات الإسلامية المتنوعة في الموضوعات والتناول، والكتب الفقهية الممتلئة بالآراء والاجتهادات والمقارنات، تُعَدّ دليلا واضحا على هذا التنوع الفكري، ليس فقط في الطرح والعرض، إنما أيضا في تبنيّ الآراء وقبولها على مستوى الأفراد أو الأقطار... وغيرها، فقد تجد أقطارا تتبع مذهبا فقهيا يختلف عن قطر مجاور، أو تَنشر كتبا لعالم أو مفكّر تَرى في رأيه صوابا، قد يعترض عليه آخرون. والكل يعتبر أن ما اختلفَت حوله الآراء فهو يمثّل رحمة للأمة المتبِعة في فهْم وتطبيق دينها، ورحمة للعالِم المجتهد في تقديم فتواه، كما أنه رحمة لطالب العلم المتتبّع لمسائله.

ولا يخفى على المتتبّع لأحوال المجتمعات التي تحتضن الثقافة الإسلامية اليوم أنها في حاجة ماسة إلى مراجعات لردود أفعال بعض أفرادها تجاه ما يقع من اختلافات في وجهات النظر والآراء بين الناس على اختلاف مستوياتهم

العلمية والثقافية. فما هذه الخلافات إلا ممارسة طبيعية وعلامة صحية تدل على سلامة العقل وصحة التفكير، تماما كما نحكم على الإنسان بسلامة بدنه وصحة جسده عن تلبية حاجات المادة من الطعام والشراب وغيرهما. مع التسليم بحقيقة أنه لا يمكن بحال أن تُترك الأمور الفطرية بدون قواعد وضوابط، خاصة فيما يتعلق بالآخر.

ومن هنا يأتي دور رسالة الإسلام في حِفظ الفطرة وضبْط الدوافع وتهذيب الغرائز؛ من أجل صلاح الفرد وإصلاح المجتمع، فكما وضَع الإسلام الأحكام والضوابط عند تلبية حاجات البدن الفسيولوجية من الطعام والشراب والجنس وغيرها، نجده يضع الأحكام والآداب للاختلافات والمجادلات بين الناس، إذ يجب أن تكون في الحق ومن أجل الحق، وأن تكون على الوجه الأحسَن في العرض والاستقبال.

رابعا: التوازن

التوازن: من وزَن، ومعناه: تعادُل النظر إلى الأشياء وإعطاء كل ذي حق حقه في الفعل وردِّ الفعل، بدون إفراط ولا تفريط. وتحقيق التوازن بهذا المفهوم يؤدي إلى الاعتدال، بمعنى: الاستقامة والعدل وعدم الجور. ولا يمكن تحقيق التوازن إلا بالتوسط وهو الحفاظ على الوسط في الأمور، وتجنّب أحد الطرفين. ومن هذا نرى أن العلاقة بين هذه الألفاظ الثلاث (التوازن - الاعتدال - التوسط) علاقة تكاملية بين الفعل وسببه ونتيجته. فلا توازن بدون توسط، ولا اعتدال بدونهما. وهذا ما يؤكده وصْف القرآن الكريم للأمة الإسلامية في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، إذ أن الوسطية هي طريق التوازن والاعتدال، فمن وُصف بالوسطية لا يمكن إلا أن يكون متوازنا معتدلا، عدْلا في جميع شئونه الدينية والدنيوية، وهذا أيضا ما يُفهم من تفسير النبي ﷺ

﴿وَسَطًا﴾ بمعنى: «عدلاً»[١].

وخصيصة التوازن للثقافة الإسلامية ثابتة لا تتغير من ناحية المبدأ والمفهوم، ولكن ربما تتغير في الشكل حسب الأفعال والمواقف. ولعل سبب بروز هذه الخاصية في الثقافة الإسلامية يرجع إلى خصيصة الربانية التي سبق الحديث حولها، خاصة فيما يتعلق بربانية المصدر الذي يدل بوضوح على طبيعة الإنسان، ومكونات خَلقه، وطرق التعامل مع ذاته والآخرين بمعيارية دقيقة، لا تتوفر إلا من خلال مصدرٍ خبيرٍ يَعلَم مَن خَلق، ويُرشد إلى ما فيه الخير والصلاح، يقول تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ومن هنا كان التوازن في التعامل مع النفس البشرية وتلبية حاجاتها المتعددة والمتنوعة طريقا أساسيا لتحقيق التوازن في كل مجالات الحياة الأخرى؛ ذلك لأن التوازن خُلق ومهارة مكتسبة، تنمو وتزداد بتقدير الفرد لها، وإلزام النفس بالتعود عليها.

ومما يساعد على تقدير التوازن في الثقافة الإسلامية هو كونه مطلبا شرعيا، دعا إليه القرآن والسنة، فكان الالتزام به قُربة يتقرب بها المسلم إلى ربه، وينال من خلالها الأجر والمثوبة أو يُحفظ من الوزر والعقوبة، وهذا ما يُعين على اكتسابه والتعود عليه، بعكس الثقافات الأخرى التي ربما جعلَته حرية شخصية وميزة تفاضلية يختارها من يشاء.

أما الثقافة الإسلامية فهي تتعهد الفرد بجملة من التوجيهات والنصائح التي تؤهل أتباعها لبناء شخصية متوازنة في نفسها ومع مجتمعها وفي علاقتها

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، تحقيق أحمد شاكر، رقم(٢٩٦١)، وقال: الترمذي: حسن صحيح، ج ٥، ص٢٠٧، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

بالآخرين من حولها. وفيما يأتي نَعرض لبعض هذه التوجيهات؛ لنرى من خلالها عمق مفهوم التوازن، وأهم مظاهره وأنواعه داخل مجتمعات الثقافة الإسلامية.

١ - قوله تعالى: ﴿ ۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١]، فنجد في هذه الآية الحديثَ عن المسجد - وهو ما أُعد للسجود والعبادة - واقعا بين الأمر بأخذ الزينة والطعام والشراب، وهي من المظاهر المتعلقة بالمادة والشكل الخارجي للإنسان، وفي هذا إشارة إلى أنه لا تعارض مطلقا بين الجانب الروحي والمادي، إنما لابد أن يسيرا معا لدعم بعضهما، فالجانب الروحي يحتاج إلى الجسد الصحيح المعافى من الأمراض والأسقام، كما أن تلبية الجانب المادي تحتاج إلى تقويم وتهذيب الدوافع والغرائز، والإسراف في التعامل مع أحد الجانبين يَضرّ بالآخر، ولذا خُتمت الآية بالنهي عن الإسراف والتنفير منه ببيان أن الله لا يحب المسرفين.

ومن هنا تأسست ثقافة المسلم أن العمل عبادةٌ ما كان بعد أداء الفرائض، وأنه لا بركة في عمل شَغَل عن أداء عبادة مفروضة، مثال ذلك: يوم الجمعة، يحرُم العمل عند النداء لصلاة الجمعة، ويستحب سرعة الانتشار إلى الأعمال مباشرة بعد الفراغ منها، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩-١٠]، ونَلحظ الحث على ذكرالله والإكثار منه بعد الانتشار للعمل. وبهذا تُستكمَل الصورة الحقيقية للتوازن المادي والروحي للفرد داخل المجتمع الإسلامي: عملٌ وبيع، ثم سعيٌ إلى الصلاة، ثم انتشار بعدها للعمل،

ثم الإكثار من ذكر الله، بهذا يصل الفرد إلى الفلاح في منظومة الثقافة الإسلامية.

ومن مظاهر فهْم هذا النوع من التوازن بين المادة والروح، والعمل والعبادة، أن تَرى المسلمَ في كل ميدان الحياة، يعمل ويُنتج ويتوفق تماما، كما تَجده في محراب العبادة مصليا وذاكرا الله وقارئا للقرآن.

٢- قصة سلمان وأبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. فقد آخى النبي ﷺ بينهما، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مُتبذِّلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كُلْ. قال: فإني صائم. قال: ما أنا بآكلٍ حتى تأكل. قال: فأكَل، فلما كان الليل، ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نَمْ. فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نَمْ. فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن. فصليّا، فقال له سلمان: «**إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعطِ كل ذي حق حقه**». فأتى النبيَّ ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «**صدَق سلمان**»[1]. ففي هذه القصة نرى التوازن داخل مجتمع الثقافة الإسلامية أمرا عمليا وليس نظريا، كما نراه مسئولية جماعية وليست حرية شخصية، وهذا ما دفع سلمانُ أن يبادر إلى إصلاح ما وجده في أخيه (أبي الدرداء) من تقصير في حقوقٍ على حساب حقوقٍ أخرى، فقام بالتوجيه العملي العاجل قبل البيان النظري، ولم ينته إلا بتأكيد النبي ﷺ لفعله، وذلك ليكون هديا دائما وسنّة متبعة لأتباع الثقافة الإسلامية في كل زمان ومكان.

---

(١) محمد بن فتوح، الجمع بين الصحيحين، ج١، ص٢٠٠.

ومن خلال القصة أيضا نستطيع أن نَعرف أهم الحقوق التى يجب أن يَظهر من خلالها التوازن في حياة الأفراد المنتمين إلى الثقافة الإسلامية، وهي كالآتي:

- **حقوقٌ تجاه الله تعالى.**

إن أول ما يجب أن يؤديه الإنسان من حقوق: هو ما كان تجاه الخالق الذي بيده كل شيء وإليه يرجع كل شيء، ففرائض الله وما أحله هي أول ما يجب أن يُؤدّى ويُؤخذ به، ونواهيه - سبحانه - وما حرّمه هي أول ما يجب أن يَنصرف الإنسان عنه، ثم تأتي من بعد ذلك الواجبات والمنهيات الأخرى.

وما ينبغي أن تَحِل أمور أخرى فوق حدود الله في التقدير والاتباع، أو أن تُقدَّم النوافل والسنن على الفرائض والواجبات، ففِعل ذلك لا يعَدّ إلا مضيعة للوقت وتفويت للأَولى في حصول ثواب الدنيا والآخرة، وهذا ما يؤيده قول أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن لله حقًا بالليل لا يَقبله بالنهار، وحقًا بالنهار لا يَقبله بالليل، وإنه لا يُقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة»[(١)]، ومن خلال وضوح هذا الإطار العام في معرفة الحدود والفرائض والحلال والحرام، يستطيع المسلم أن يحقق التوازن في علاقته بالله تعالى.

- **حقوقٌ تجاه الإنسان مع نفسه.**

من المعروف أن الله خَلق الإنسان مكونا من الروح والعقل والبدن. وجعَل لكل جانب من هذه الجوانب طبيعة متميزة واحتياجات خاصة، يجب على الإنسان أن يعلَمها جيدا، وأن يقوم بتلبيتها بما يناسبها كمّا وكيفا، ويعملَ على بقاء حيويتها وتفاعلها. فالبدن مثلا: له غذاءه الخاص في أوقاتٍ خاصة، وله

---

(١) علاء الدين الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، رقم(٣٥٧١٦) ج١٢، ص٥٣٣، مؤسسة الرسالة، ط الخامسة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

راحته وحِفظه من كل ضرر وإيذاء. والروح لها: غذاؤها المختلف تماما عن غذاء البدن والعقل، كما أن لها ما يريحها ويطمْئنها. وكذلك العقل: يحتاج لنمائه وأداء دوره غذاء مختلفا تماما عن بقية الجوانب الأخرى. ومن هنا يأتي دور التوازن في إعطاء كل جانب حقه، من غير سَرف أو إفراط، وذلك حتى تتم عملية النمو الإنساني بشكل طبيعي متوازن لا يطغى جانب فيها على آخر؛ فذلك مما يؤثّر على عملية النمو، ويُضعف العطاء المتوقع، مما يُحدث منازعة واضطرابا بين مكونات النفس البشرية بسبب التضخم في بعضها على حساب البعض، ولهذا فإن من أشد أنوع الظلم للنفس أن يَحرمها صاحبُها من التمتع بالطيبات التي أحلها الله بدعوى الزهد والورع، أو أن يحول بينها وبين لذة العبادة واتصال الروح بمصدرها، بدعوى السعي على العمل أو طلب الرزق. وهذا ما يؤكده قول النبي ﷺ: «**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقُد، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[1]، ولقد جاء هذا الحديث تعقيبا على الثلاثة الذين ظنوا أن القرب من الله يكون بقيام الليل وبصيام النهار وعدم الزواج.

- **حقوقٌ تجاه الآخرين.**

العلاقة المتوازنة مع الآخرين ثمرة طبيعية لتوزان الفرد في علاقته مع الله ومع النفس، وذلك لأن علاقة الإنسان بالآخرين ترتبط أساسا بمدى معرفته بالله، وتقديره للروابط التي بينه وبين الناس، فالله تعالى هو الذي شرَع الروابط بين البشر وبيّن أحكامها، كعلاقة: الأبوة، والأمومة، والأخوة، والزوجية... وغيرها.. وواجب الإنسان ضمن منظومة الثقافة الإسلامية أن يعرِف طبيعة هذه

(١) محمد بن فتوح، الجمع بين الصحيحين، ج٢، ص٤٥٦.

العلائق وأن يحيط بأحكامها، وأن يقدّرها بإعطاء كل فرد ما يستحقه من حقوق وواجبات، من غير تقديم ولا تأخير إلا بحق. فالأبوان مثلا: لهما حق التقديم في الاستجابة لهما وتلبية حاجتهما وطاعتهما بعد طاعة الله في غير معصية. وفي نفس الوقت يجب أن يراعي الإنسان حق الزوجة والأولاد، وأن يوازن في القيام بما هو واجب في حق الجميع. وليس معنى ذلك قطع العلائق الأخرى مع الناس إنما لابد أن توضع كل علاقة في دائرتها وحيزها، فلا تطغى الصداقة والأخوة العامة على علاقة الرحم وأخوة النسب. فمثلا: تجد بعض الناس قاطعا للرحم في حين أنه لا يهدأ يومه إلا بالتواصل واللقاء مع أصحابه وأخلّائه. أو من يقوم بالإنفاق والبذَخ على من لا تجب عليه نفقتهم بدعوى الكرَم وحُسن المظهر، في حين أن له والِدين أو زوجة أو أولادا لم يصل معهم بالنفقة إلى مستوى الكفاف، وقد جاء في حديث النبي ﷺ: «**وابدأ بمَن تَعول**»[1].

ومما يُعين على تحقيق التوازن: هو تحديد قائمة الأولويات، بدءا بالواجبات الشرعية خاصة ما يتعلق بالزمن، وعدم السماح للنفس بالانشغال بما هو دون الواجب حتى ينتهي الإنسان من التزامات دائرة الواجبات الحكمية والزمانية.

ومن أهم فوائد التوازن في مجتمعات الثقافة الإسلامية: النفس المطمئنة التي إن وُجدت أفاضَت على من حولها الأمن والأمان، ودفعَت المجتمع إلى الاستقرار الاجتماعي، لأن التوازن سيُعين على توسيع دائرة العطاء في الجوانب المختلفة من الحياة، وإذا كثُر أصحاب العطاء في المجتمعات وجَد كل إنسان ما يريد.

---

(١) محمد بن فتوح، الجمع بين الصحيحين، ج٣، ص١٧٦.

خامسا : بناؤها على الثوابت والمتغيرات

الثوابت: تمثل الجذور والعُمد التي يقوم عليها البناء ويمتد معها على مدار الزمان. والمتغيرات: هي التي يمكن تعديلها بتقديم أو تأخير أو بحدوث إضافات عليها، حسب الوقائع والأحداث المتعلقة بالزمان والمكان. وهذه الخاصية هي أبرز ما يميز الثقافة الإسلامية من بين الثقافات، فهي ثقافة لها جذروها الثابتة الضاربة في أعماق التاريخ والتي لا يمكن أن تتغير أو تتحول مع مرور الأيام، كما أنها ثقافة متنامية ومتجددة من خلال المتغيرات التي تنشأ في ظل الأصول والثوابت.

ومن أهم ثوابت الثقافة الإسلامية: (الدّين) بأركانه الثلاثة: العقيدة، والأخلاق، والتشريعات. فلا يوجد مجتمع ينتمي إلى الثقافة الإسلامية إلا وتجد هذه الثوابت متجذّرة في أفراده جيلا عن جيل. ثم يأتي دور المتغيرات بعد ذلك للتعامل مع الأحداث والقضايا التي تمر بها المجتمعات، ومن هنا قد تختلف بعض هذه المتغيرات من زمان إلى زمان أو من مكان إلى مكان.

ومما يجدر الإشارة إليه أن دائرة المتغيرات التي تحتاج إلى اجتهادات وإعمال للعقل أوسع من الثوابت القاطعة التي لا يقبل المساس بها، وذلك أمر منطقي لطبيعة الخلق والخلائق. يقول ابن خلدون: «أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونِحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقرة؛ إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول، سنّة الله التي قد خلَت»[1] وهذه ما يؤكده قول إمام الحرمين: «معظم

(١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش ج١، ص٢٤، دار يعرب، ١٤٢٥ - ٢٠٠٤.

الشريعة صادرة عن الاجتهاد ولا تفي النصوص بعُشرها»[١].

وأبـرزُ مـا في خاصـية الثوابـت والمتغيـرات داخـل الثقافـة الإسـلامية أن المتغيرات تدور مع الثوابت ولا تصطدم بها، كما أنها تعمل لخدمة الثوابت والتأكد من إمكانية تطبيقها والعمل بمقتضاها، وبناء على هذا كان بناء الثقافة الإسلامية عليهما معا. وهذه هي الميزة الحقيقة التي لا تتوفر إلا في الثقافة الإسلامية، إذ أن غيرها من الثقافات إما أن يكون جامدا أبدا في ظل ثوابت لا تَقبل بالمتغيرات، أو أنها ثقافات دائما متغيرة على غير قاعدة، فلا حدود للمتغيرات فيها ولا معيار لكل جديد عليها، أو أن المتغيرات قد تتنازل عن بعض الثوابت مراعاة للظروف والأحداث، أو أن تتَحول بعضُ المتغيرات فيها إلى ثوابت.

أما الثقافة الإسلامية فأصولها وثوابتها هي القاعدة التي تنطلق منها المتغيرات، كما أنها هي المعيار المدقِّق لكل جديد يقدَّم في ساحتها، وهذا هو ما يؤهلها لاكتساب صِفتي: الأصولية والمعاصرة.

وبناء على ما سبق يمكن أن نَنظر إلى الثقافات العالمية، فنجد منها: ما قام ثم اندثر، ومنها: ما زال يتشكّل، ومنها: ما تتغير أصوله، ومنها: ما هو ثابت لا يتغير، ومنها: ما هو ثابت الأصل متجذّر الثوابت، متجدد في الشكل متغير في الوسائل. والثقافة الإسلامية المعاصرة هي أبرز ما يمثل هذا النوع الأخير.

ولا شك أن اعتماد بناء الثقافة الإسلامية على الثوابت والمتغيرات معا، يعود بفوائد كثيرة على الأفراد والمجتمعات التي تنتمي إليها، ومن هذه الفوائد:

---

(١) ابن الصلاح، أدب المفتي والمستفتي، تحقيق: موفق عبد الله عبد القادر، ج١، ص٢٠٦، ط أولى، مكتبة العلوم والحكم، عالم الكتب – بيروت، ١٤٠٧.

- النمو والتطوير: إذ لا بناء بدون قواعد وأسس يقوم عليها الشيء، ولا نمو وتطوير إلا على قواعد وثوابت، وبعمق الثوابت ورسوخها يكون مقدار التطوير والتحسين والنماء من خلال المتغيرات.
- المرونة والثبات: وهذه هي القوة الحقيقية للأشياء، لا تكن صَلبة فتكسرها العواصف، ولا ليّنة فتكون هدفا للسهام، إنما هي مرنة في ثبات، كشجرة الأرز عميقة الجذور ولا تكسرها الرياح.
- القبول والتعايش: ما فائدة القديم إذ لم يقدّم للجديد ما يُعينه على فَهم عصره والتعامل معه، إن قيمة الثوابت تكمُن في قدرتها على تأهيل كل جيل بما يناسبه، وإعداده لمرحلته، وهذا لا يتسنى إلا مع قبول الثوابت بالمتغيرات ودعوتها للتطوير، ومن هنا يكون قبولها والقدرة على التعايش معها.
- عمق التجارب وكثرة الخبرات: لا شك أن التعامل مع كل هو جديد ومحاولة الاستفادة من خيره وتجنب ما كان غير ذلك، يولّد خبرات إنسانية متعددة في كل التخصصات وجوانب الحياة المختلفة، وهذا ما تحث عليه الثقافة الإسلامية في دعوتها إلى تبني المتغيرات في ظل الثوابت، ولذا فالأصل أن تكون من أثرى الثقافات خبرة وتجربة في فهم الحياة ومعرفة طبيعتها.

الخاتمة

أهم النتائج:

- الثقافة الإسلامية هي أقدر الثقافات على تحقيق المعاصرة، فهي تَنبع من مصادر ثابتة لا تتغير، وتتمتع بشمولية الزمان والمكان، وبعالمية المنهج والرسالة، وبمرونة الحركة والتطبيق، وقابلية التطوير والتجديد، والتعامل مع المستجدات؛ هذا بالإضافة إلى عمق الخبرات الإنسانية العميقة في مجالات الحياة المتنوعة.
- الإنسان هو أساس تحقيق العالمية، والعالمية لا تتحقق إلا بالاعتراف بالإنسان وتقدير حقوقه، عملا وتطبيقا، لا شعارا ولا تنظيرا.
- المتخصصون من العلماء والمفكرين المسلمين على أبواب علم جديد في موضوعاته وتناوله، مما يتطلب دراسات وأبحاثا ميدانية معاصرة، يمكن من خلالها إظهار الإسلام عبر منتجات الثقافة الإسلامية في صورة حضارية معاصرة، شاملة للجوانب: الروحية والعقلية والمادية، وقابلة للتفاعل مع المتغيرات والأحداث والمستجدات؛ ومتميزة بالتقاليد والعادات، وطرق الحياة المنبثقة في كثير منها من ثوابت العقيدة وروحها؛ فذلك مما يجعل الثقافة الإسلامية مادة حية متجددة، تصلح للتعريف بالإسلام والدعوة إليه.
- جعْل الثقافة الإسلامية علما مستقلا، يجنِّب الدارسين والباحثين الإسلاميين التكرار والتداخل بين فروع الدراسات الإسلامية والثقافة الإسلامية، كما يَفتح الباب للتوسع في دراسات واقعية موضوعية، تهتم بمعارف ومهارات مختلفة، تضاف إلى جملة العلوم الإسلامية والتاريخية.

أهم التوصيات:

- يلزم أن يكون هناك تعريف اصطلاحي للثقافة الإسلامية، يراعي الجانب التخصصي للثقافة كعلم له مقوماته، وقواعده، وضوابطه بين الأكاديميين والمتخصصين، وأيضا يتوافق مع طبيعة الإسلام كدين إلهي يهدف إلى تنظيم حياة الأفراد والمجتمعات في جميع شئونهم وتصرفاتهم.
- ضرورة النظر إلى الثقافة الإسلامية على أنها علم جديد معاصر، فذلك مما يجعل موضوع الثقافة الإسلامية إضافة أكاديمية جديدة في مجال التخصصات العالمية المعاصرة.
- ضرورة ارتباط الدارسين والباحثين المعاصرين في مجال الثقافة الإسلامية بالحاضر دراسة وتحليلا، فذلك مما يساعد على فهم التحديات المعاصرة، وامتلاك القدرة على مواجهتها والتعامل معها.
- يجب اعتبار الثقافة الإسلامية علما أكاديميا جديدا، داخل المؤسسات الأكاديمية والتعليمية، فذلك مما يساعد على وضْع الضوابط والمهارات والمؤهلات التي تناسب الطبيعة التخصصية لهذا العلم.

هذا والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

أهم المراجع

١) القرآن الكريم
٢) ابن الصلاح، أدب المفتي والمستفتي، تحقيق: موفق عبد الله عبد القادر، ط أولى، مكتبة العلوم والحكم ، عالم الكتب - بيروت، ١٤٠٧.
٣) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، ١٤٢٥ - ٢٠٠٤.
٤) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى.
٥) أحمد، مسند الإمام أحمد، مؤسسة قرطبة - القاهرة.
٦) الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، دار الفكر ط ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
٧) الترمذي، الجامع الصحيح، تحقيق أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٨) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الشاملة.
٩) الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان بيروت الطبعة ١٤١٥ - ١٩٩٥ تحقيق: محمود خاطر.
١٠) علاء الدين الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة، ط الخامسة،١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
١١) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، سنة النشر: ١٤٢٦ - ٢٠٠٥.
١٢) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، المطبعة السلفية.

١٣) مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة: د. علي سيد الصاوي، سلسلة عالم المعرفة، يناير ١٩٧٨.
١٤) محمد النبهان، مبادئ الثقافة الإسلامية، دار البحوث العلمية، الكويت،ط أولى ١٣٩٤-١٩٧٤
١٥) محمد بن فتوح الحميدي، الجمع بين الصحيحين، تحقيق: على البواب، دار ابن حزم بيروت-لبنان، ط٢، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
١٦) مصطفى مسلم، وفتحي الزغبي، الثقافة الإسلامية، دار إثراء للنشر والتوزيع، عمان -الأردن، ط أولى، ٢٠٠٧م.
17) http://www.unesco.org/bpi/eng/unescopress/2001/adiversiteculturelle.htm
18) http://kamoos.reefnet.gov.sy/?page=entry&id=284833
19) http://www.unesco.org